## 1- المثقف والمثقف الإبراهيمي سؤال المكانة والدور:

إن الحديث عن مفهوم المثقف ليس أقل ضبابية ولا صعوبة من الحديث عن مفهوم الثقافة؛إذ أن كلمة مثقف على كثرة استعمالها وإطلاقها أصبحت غير واضحة ولا محددة،فمن هو المثقف؟وما هي أدواره التي تميزه؟وهل هناك فرق بين المثقف والمتعلم ورجل الدين والأكاديمي والباحث والخبير والإداري وغيرها من الكلمات التي لانجد حرجا في استبدالها أو تدعيمها بكلمة مثقف،كونها تتداخل معها في بعض الوظائف والصفات،حيث نجد أنفسنا مجبرين على التساؤل:من هم المثقفون؟هل هم فئة معينة في المجتمع منتقاة بعناية؟أم هم مجموعات كبيرة؟

تقدم الدراسات الغربية حول إشكالية المثقف تحديدات لمرحلة ظهور المثقف كفاعل داخل المجتمع حيث تعتبر أن الخروج من هيمنة الكنيسة وعلمنة المجتمع الغربي الذي دخل الحداثة ملغيا سلطة الكنيسة ورجال الدين،ومؤسسا لتعددية دينية وحرية فكرية ومعلنا سيادة حقوق الإنسان؛حيث أن المثقف أو الانتلجنسيا عند "غرامشي" يمكن النظر إليه كبديل عن رجل الدين في الكنيسة،يتوافق مع المراحل التاريخية الجديدة[1]وعلى كل فإن الكثير من الباحثين وخاصة الفرنسيين منهم واللذين دائما ما يعملون على نسبة ميلاد المثقف للثقافة الفرنسية،ويقرنون هذا الميلاد بزوال سلطة الكنيسة،وتبقى اللحظة الدارفوسية[*]كإعلان حقيقي وقوي على ميلاد المثقف والتي دشنها"إميل زولا" في رسالته المفتوحة إلى الرئيس الفرنسي "فليكس فور" والتي تبدأ بعبارة : "إني اتهم j'accuse "[2]إن رمزية هذا الإعلان تشكلت من خلال الاعتراض واتخاذ موقف من طرف الكثير من الوجوه الأدبية والفنية الفرنسية،ورفضهم للظلم المسلط على الجندي الفرنسي بعدما تبين انه بريء من تهم الخيانة الموجهة له.

لقد تعددت التصورات حول المثقف بالنظر إلى وضعيته داخل الحيز الاجتماعي الذي يشغله والدور المنوط به يعد ذلك،وفي كل هذا نجد مقاربات متعددة حول المثقف،فـ"إدوارد سعيد" يعتبر أن المثقفين هم «هؤلاء الأشخاص الذين لا يمكن التنبؤ بسلوكهم العام ولا إخضاعهم لشعار ما أو خط حزب مبدئي قويم،أو عقيدة ثابتة»[3] فهو يصف المثقف دائما على انه «منفي،هامشي وهاو ومؤلف لغة تحاول إن تقول الحقيقة للسلطة»[4]فالمثقف عند "سعيد" هو شخص دائما ما يأخذ تلك المسافة النقدية من السلطة ولا يتوقف على تقديم الأسئلة المحرجة والمربكة لها،مع عدم قدرة السلطة على احتوائه،وحتى يتسنى له هذا لابد أن يتمتع بمواهب وقدرة على حمل الأفكار والتعبير عنها والإقناع بها،فهو حامل أفكار ومدافع عنها بالأساس،إن "سعيد" في كل تصوراته حول المثقف كما يقول "عزمي بشارة" يقدم المثقف في موقف الغريب والهامشي[5]فهو دائم العداء والبعد عن المركز إذ لا يمكنه الصدور عنه والانضواء تحت راية أي سلطة كيفما كانت،فهو عادة ما ينأى عن كل هذه الشبهات التي قد تحد من حريته في ممارسة فعل النقد،فالمثقف عند "سعيد" محكوم بتلك الزوايا الثلاث التي يتحدث عنها "عبد الإله بلقزيز" في كتابه " نهاية الداعية"وهي : السلطة،الجمهور،والمعرفة [6]حيث أن النظر إلى المثقف يتم من خلال تلك المسافة النقدية التي يتخذها من هذه الثلاثية،هذه المسافة هي من تمنحه تلك الشرعية التي من خلالها يمتلك سلطة رمزية/سلطة المعنى عند "بيير بورديو"[7]،فشرعية المثقف مرهونة دائما بتلك المسافة وذلك الرفض الكبير الذي يمتاز به،وخاصة في علاقته بالسلطة،فـ"ماركوز" يعتبر أن المثقفين «يقولون بالنفي وينحازون إلى الشأن العام ويشككون في الحقيقة الرسمية السلطوية ولذلك هم في عداء دائم مع السلطة والمؤسسات»[8]وفيما يخص المعرفة فان علاقة المثقف بها هي علاقة تجديدية،فهو دائما ما يحاول التأسيس للتجاوز في معارفه ولا يقبل كل شيء إلا من خلال المصفاة النقدية،ويحيا على تحويل معارفه وعلومه إلى سلوكيات

ومواقف من خلالها يُفَعِّل المعرفة ويحوِّلها إلى "موقف نقدي"وفي علاقة المثقف بالجمهور الذي هو الركن الأساسي في منح الشرعية للمثقف يكون مفهوم الانخراط والالتزام بقضايا الناس هو الهدف المركزي للمثقف؛إذ لا وجود لمثقف معزول عن الناس وإن كان هذا لا يمنع من أن تكون شخصية المثقف انفرادية من ناحية التفكير والتنظير منغمسة في المجموعة من ناحية السلوك والتعبير[9].

بالعودة إلى نص الإمام "الإبراهيمي" "واجب المثقفين نحو الأمة" نجده يعرف المثقف بـ: «المثقف هو الرجل المهذب المستنير الفكر المجوهر العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء،الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أساس التخريف،المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه الملم بجانب من معارف عصره»[10]إن تعريف الإمام للمثقف يؤكد على انه يدرك جيدا ماهية المثقف؛حيث يميزه عن المتعلم،فالحديث عن المعرفة كصفة للمثقف تركها للأخير،وبدأ بخلع صفات أخلاقية وعناصر تكوينية لا بد أن تكون في الشخص حتى نقول عنه بأنه مثقف،لأن المثقفين كفئة بشرية تشكلت تاريخيا لم تتأسس على خطاب معرفي بقدر ما كانت تختص بصفات وسلوكيات ومواقف،فمفهوم الانتلجنسيا" Lintelligensia " كمفهوم قادم من الثقافة الروسية «لا يرتبط بمؤهل أو دبلوم علمي أو اختصاص بل برفض الواقع السائد وتغييره» [11]،بمعنى أن الإمام كان على وعي بان ما يجعل المثقف مثقفا ليست المعرفة بالدور الأول،بل الممارسات والسلوكيات.

إن حديث الإمام على صفة التنوير في المثقف «المثقف هو الرجل المهذب المستنير» كسمة أساسية يشترك في التأكيد عليها الإمام مع عدد من المنظرين الكبار لإشكالية المثقف،حيث نجد "جيرار ليكلرك" يتحدث كثيرا عن الجوانب التنويرية في المثقف [12]،ونجد الإمام يتحدث عن استقلالية الفكر «المستقل الفكر في الحكم على الأشياء» مؤكدا على المسافة النقدية التي لا بد من توفرها في المثقف حتى

تكفل له استقلالية الفكر والابتعاد عن التأثيرات النفسية أو الإثنية أو الفئوية في الحكم على الأشياء فتكون له استقلالية فكرية تجعله لا يؤمن إلا بالقيم الخالدة للحقيقة والعدالة التي تحركه لدفاع عنها حسب "جوليان بيندا" في كتابه " خيانة المثقفين" [13].

إن الإمام في رؤيته حول المثقف يؤسس لمثقف جزائري يعي شروط المراحل التاريخية ويحسن التعامل معها وهو في هذه الرؤية يقدم تصورا وظيفيا حول المثقف؛إذ بدءا من العنوان يتحدث الإمام عن مفاهيم "الدور والمكانة"فهو حين يعنون نصّه بـ"واجب المثقفين نحو الأمة" ويتحدث عن الأدوار "الواجبات" نجده داخل النص يذكر ويؤكد على المكانة التي لا بد من أن ينالها المثقف في الأمة حتى يستطيع تحقيق الأدوار المنوطة به،يقول:«والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير» [14]وعبر توارد فقرات النص نجد الإمام يحثُّ على ضرورة إيجاد مكانة خاصة للمثقفين في المجتمع"سلطة ثقافية" هذه المكانة التي لا تتحقق إلا إذا اقتنع الناس بأهمية الثقافة والمثقفين يقول:«ولا نطمع في زيادة عدد المثقفين إلا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف» [15]، إن الإمام يرى أن حضور المثقف في غياب تلك السلطة الرمزية التي تتأتى من استجابة الجمهور وتقديره له،حضور لا معنى له إذ إن زيادة عدد المثقفين يرتبط بزيادة الوعي داخل المجتمع بأدوارهم،وهنا ينتقل للحديث عن كيفية اكتساب المثقف لهذه السلطة الرمزية التي لا يمنحها المجتمع له إلا بعد اندماج وامتزاج هذا المثقف بالمجتمع،فالإمام لا يقرّ بمثقف البرج العاجي المنفصل عن الواقع وغير الملتزم بقضاياه يقول:« الامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها والتحبب إليها ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية والدخول في مجتمعاتها ومعابدها ومشاركتها في عبادتها وفي الصالح من عوائدها،فبذلك

تحصل الثقة منها وتنقاد لكل ما يريده منها وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه،وثقة الأمة بالمثقفين هو رأس المال في هذا الباب» [16].

إن " الإبراهيمي" في هذا النص يتحدث عن الامتزاج والانخراط في الأمة التي من خلالها يمكننا أن نحكم على الشخص بالمثقف أو بأدائه للدور الثقافي –حسب "غرامشي"– الذي يعتبر في كتابه "دفاتر السجن" «إن كل الناس مثقفون،ولكن ليس كل الناس يمارسون وظيفة المثقف في المجتمع» [17]ف"الإبراهيمي" يعي جيدا ضرورة انخراط المثقف في المجتمع وصدوره عن جماهير الناس واهتمامه بقضاياهم وشؤون أمتهم؛إذ أن هذا السلوك النقدي التواصلي مع الناس هو ما يميّز المثقف،عن غيره حسب "جوزيف شومبتير"[18]هذا الانخراط في المجتمع هو ما يمنح الثقة الاجتماعية الجماهيرية للمثقف فتتشكل تلك السلطة الرمزية عنده،فثقة الأمة حسب "الإبراهيمي" هي رأس المال الثقافي للمثقف بلغة "الإبراهيمي" وكذا "بورديو"إن الثقة التي يتحدث عنها "الإبراهيمي" تجسدت حقا فيه وفي أعضاء جمعية العلماء كما يرى "عبد الله الحمودي"، فقد انشغل علماء الجزائر «بإعادة تجديد وبعث الهوية الجزائرية في وجه المستعمر وبذلك ضمنوا لأنفسهم وفاء الجماهير وثقتهم،إذ أنهم انكبوا على قضايا الناس الملموسة واهتموا باليوم في جموع الشعب بما اتصل بالأخلاق والعلاقات الاجتماعية والعبادات» [19]فتحقق فيهم مفهوم المثقفين المنخرطين،وإزاء هذا النموذج من المثقف المنخرط يذكر الإمام نموذج المثقف السلبي أو الخامل [20] المنسحب عن شؤون الناس والمجتمع،إن هذا المثقف عند الإمام هو مرض وبلاء في الأمة يكون تأثيره سلبيا فيها،وفي هذا الصدد من الحديث عن أنواع المثقفين نجد الإمام يذكر نموذجين من المثقف في الأمة الجزائرية " المثقف ثقافة إسلامية والمثقف ثقافة أوروبية" ويتحدث عن ضرورة تكاملهما وتواصلهما وبناء ما يمكن وصفه بالكتل الثقافية التي تساهم بتشكيل ملامح مرجعية للأمة الجزائرية تأخذ من كلا النموذجين

ما هو صالح ورصين،ولا يتوانى الإمام في نقد العقل الفقهي الجامد الذي نظر بعين الريبة ومارس الإقصاء للمثقفين ثقافة أوروبية،يقول الإمام : « إذا كان أمر الدين في الأمة موكولا إلى طائفة من الفقهاء الجامدين لا يفهمون من حقائق الدين ولا من أسراره شيئا ولا يعلمون من لغته إلا قشورا فكانوا يسيئون الظن بالمثقفين ثقافة أوروبية ويحكمون عليهم بالخروج من الدين ويشوهون سمعتهم عند الأمة» [21].

إن هذا النقد من "الإمام" هو بيان لما حازه من صفاء عقل وقوة تفكير وعمق تدبر ونفاذ رؤية حيث أن فهمه للأمة وتحديده لسقفها يتأسس على وعي بالاختلاف والتكامل في بناء الأمة الجزائرية بالانفتاح على الثقافات الأخرى ومثاقفتها وعدم النظر إلى الثقافة الأصلية المحلية على أنها الثقافة الوحيدة الصحيحة والصالحة في الأمة و انكفاء بها والانطواء عليها والنكوص والارتداد إلى الماضي الثقافي الذي يعبر عن شعور بالهزيمة ويدلل على عمق الأزمة في أي ثقافة [22].

إن "الإمام" وبالرغم من الفضاء الكولونيالي الذي يفكر داخله كان يحقق وعيا ثقافيا متوثبا متفردا بمسألة المثقف ودوره ومكانته في المجتمع أسس لثقافة الانفتاح والاختلاف في الأمة دون تجاوز مثقفها أي شرط من شروط توازنها وتماسكها والتي يسميها"روح الأمة" فيقول:« توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوماتها» [23]، إن هذا السقف الذي يحدده " الإمام" للأمة هو رهان المثقفين الجزائريين في تنوعهم واختلافهم وانفتاحهم على عديد الثقافات من أجل الخروج من نير الاستعمار وللقضاء على البواعث الكولونيالية في الأمة الجزائرية.

إن الإمام محمد "البشير الإبراهيمي" من خلال هذا النص وكل آثاره دائما ما حقق سؤال الوعي بالمثقف والحاجة إليه في الأمة كون المثقف هو سبيل الخلاص من حالة الجهل والاستغلال التي فرضتها الحالة الكولونيالية.

[1] – جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، تر: جورج اكتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2008، ص31.

[*]– دارفوس: الجندي الفرنسي اليهودي الذي اتهم بالخيانة مع براءته مما جعل الكثير من الكتاب والمبدعين يتعاطفون معه.

[2] – علي صالح المولى، هل من حاجة اليوم إلى مثقف هووي، مجلة تبين ، ع 13، مج 4، 2015، ص59.

[3] – إدوار سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، تر: حسام الدين خضور، دار التكوين، لبنان، ط1، 2003، ص08.

[4] – المرجع نفسه، ص11.

[5] – عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين، ع4، مج 1، 2013، ص135.

[6] – عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية الممكن والممتنع في ادوار المثقف، المركز الثقافي العربي، 2000، ص7-8.

[7] – ستيفان شوفاليه و كريستيان شوفري، معجم بورديو، تر: الزهرة إبراهيم، دار النايا، الشركة الجزائرية السورية للنشر، ط1، 2013، ص181.

[8] – جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين،ص 60.

[9] – المرجع نفسه، ص 78.

[10] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص125.

[11] – عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، ص 129.

[12] – جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين،ص 12.

[13] – حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان ، الجزائر، ط1، 2007، ص153.

[14] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص126.

[15] – المرجع نفسه، ص 126.

[16] – المرجع نفسه، ص129.

[17] – إدوار سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، ص 16.

[18] – عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، ص130.

[19] – عبد الله الحمودي، الشيخ والمريد، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب، ط4، 2010، ص 204-205.

[20] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص125.

[21] – المرجع نفسه، ص127.

[22] – عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر ، ط1، 2013، ص44.

[23] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص126.

قائمة المصادر والمراجع:

1. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، 1940–1952، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار البصائر، الجزائر، ط1، 2008.
2. ألان تورين، براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، تر: جورج كتوره، المنظمة العربية لترجمة، لبنان، ط1، 2001.
3. السيد عمر، مقاربة إسلامية في بناء مفهوم الأمة، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، ع 27، 2011.
4. محمد شحرور، الدولة والمجتمع، دار الأهالي، سوريا، (دط)، (دس).
5. نبيل فازيو، مفهوم الأمة عند ناصيف نصار، مجلة المستقبل العربي، ع450، 2016.
6. رابح لونيسي، التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة، دار كوكب العلوم الجزائر، ط1، 2007.
7. طوني بينيتس وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2010.
8. دافيد إنجلز، جون هيوسين، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، تر: لما نصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، قطر ، ط1، 2013.
9. رونان ماكدونالد، موت الناقد، تر: فخري صالح، دار العين للنشر ، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2014.
10. كليفورد غريتز، تأويل الثقافات ، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2009.
11. محمد عبد المعبود مرسي، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، درا سحر ، مصر، ط1، (دس).
12. محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار مجدلاوي، الأردن، ط1، 2007.
13. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سوريا، ط11، 2005.
14. جيرار ليكلرك، سوسيولوجيا المثقفين، تر: جورج اكتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، .
15. علي صالح المولى، هل من حاجة اليوم إلى مثقف هووي، مجلة تبين ، ع 13، مج 4، 2015.
16. إدوار سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، تر: حسام الدين خضور، دار التكوين، لبنان، ط1، 2003.
17. عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين، ع4، مج 1، 2013.
18. عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية الممكن والممتنع في ادوار المثقف، المركز الثقافي العربي، 2000.
19. ستيفان شوفاليه و كريستيان شوفري، معجم بورديو، تر: الزهرة إبراهيم، دار النايا، الشركة الجزائرية السورية للنشر، ط1، 2013.
20. حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان ، الجزائر، ط1، 2007.
21. عبد الله الحمودي، الشيخ والمريد، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب، ط4، 2010.
22. عبد الرزاق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر ، ط1، 2013.